ثقافتنا بين البناء والهدم

د. محمود السيد ❁

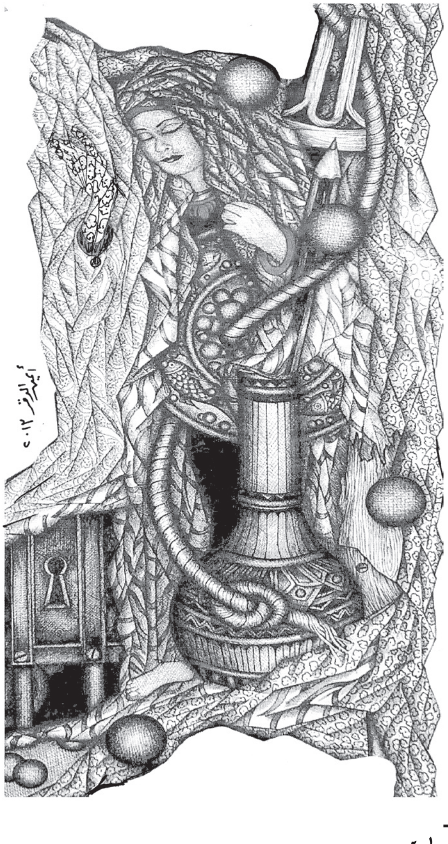

غنـــيٌّ عن البيان أنَّ الإنســـان وحده من دون غيره من الكائنات الحية، يتميز بالثقافة وبقدرتـــه على التفكير والابتكار بفضـــل ما أوتيه مـــن عقـــل وذكاء وإرادة، وأنَّ الثقافة هي تأكيد لإنسانية الإنســـان وإبراز لهويته المميزة، وهي عامل توحيد بين أبناء الشعب الواحـــد، وعامل أساســـي في تغيير المجتمع ورســـم طموحاته، وعامل سلام وتفاهم بين مختلف الشعوب.

وثقافة أي أمة هي تراثها المادي والروحي وســـلوكها الحياتي وطموحاتها المستقبلية، ولا ينفصـــل أي مســـار من هذه المســـارات عن الآخر. وتتضـــمن الثقافة أموراً مشتركة بين جميع أبناء الوطـــن الواحد، ومن أمثلة هذه الأمور المشتركة اللغة والأزياء والتاريخ

❁ أديب ورئيس لجنة تمكين اللغة العربية - ووزير سابق.

العمل الفني: الفنان أيمن الدقر.

والمشكلات والآمال وجميع الجوانب العملية والأدائيــة والتطبيقية في حياة البشر، وهذه الأمور المشــتركة لازمــة للمواطنة ولتحقيق وحدة المجتمع وتجانسه وتماسكه.

وإنَّ الإســتراتيجية التــي تنتهجها أمتنا في المجال الثقافي هي إســتراتيجية الثقافة الهادفــة والملتزمــة، وهي الثقافــة البناءة التي يبنى الإنســان في ضــوئها بناءً متوازناً ومتكاملاً على أنَّه ســلاح الأمة في مواجهة كل تيــارات الغــزو الثقــافي وكل محاولات التغريب والهيمنة وطمــس الهوية في منأى عن كل إرهاب وتطــرف، ذلك لأنَّ الإرهاب والتطــرف متلازمــان، وإذا وجد التطرف انتفت القيم الإنسانية. وإذا سألنا عن سمات هذه الثقافة البناءة فإننا نجدها تتمثل في:

- المقاومة والفداء والتضــحية في سبيل الوطــن والذود عن حماه علــى أنَّ المقاومة هي ســلاح الشــعوب المقهورة والمضطهدة والمستضــعفة، وهي أحد خيارات الشعوب الحية عندما تحتل أرضــها وتنهب ثرواتها وتستعبد أجيالها.

- العقلانية القائمة على التفكير العلمي والأســلوب العقــلاني في التفكــير والحوار وممارسة النقد والبحث عن الأدلة والوقائع وتمثــل القيــم العلمية مــن مثــل الأمانة والموضوعية.

- محبــة الفــرد لوطنــه والإخلاص له والذود عنه من دون تردد أو تخاذل والتزامه بمبادئه وقضــاياه وقوانينه وقيمه والتفاني في خدمته والشــعور بمشــكلاته، والإسهام الإيجابي مع غيره في حلها.

- تعزيــز المواطنــة علــى أنَّهــا حقوق وواجبات وممارسة لهذه الحقوق والواجبات بكل وعي ومسؤولية، إذ إنَّ المواطنة بالوعي والكيــان الفاعل والإرادة، ذلــك كله يجعل مصــلحة الوطن والوعــي بالتحديات التي يواجههــا والذود عن أرضــه وحماه في قمة الأولويات.

- حماية الإنجازات التي حققها الوطن والمحافظة على استقراره.

- الانتمــاء إلى الوطــن ذي العمــق الحضاري والولاء له، وهذا الانتماء للوطن فوق أي انتماء آخر.

- تماسك المجتمع ووحدته الوطنية.

- التعاطف والغيرية والمحبة والعدالة.

- التسامح والحوار والسلام.

- الشعور بالمسؤولية تجاه حقوق الأفراد والجماعات.

- التعــارف والتآخي والمســاواة وقبول الاختلاف والإنصات إلى الآخر.

- نبذ مختلف أشكال العنف.

- تبــادل الآراء والحــوار البناء وتبادل الــرؤى واحــترام توجهات الآخريــن ونبذ

التعصب والكراهية، وانفتاح متزن على كل الثقافات والحوار الواعي معها.

- الإيمان بالتعددية في إطار الوحدة الوطنية وتوظيفها في مصلحة الوطن.

- قوة الإرادة.

- عزة النفس والكرامة.

- مكافحة الفساد ومواضع الخلل في الأداء والعمل على علاجها.

- سيرورة القيم الإنسانية في الهياكل والمؤسسات الاجتماعية كافة محبة ورفقاً وتسامحاً وتشجيعاً في الأسرة والمدرسة والمجتمع.

- تحرير الفكر من إرهاب التفكير الخرافي والتفكير التكفيري، وضيق الأفق والتزمت والأثرة.

إنَّ الثقافة البناءة هي الحصن الحصين ضد ثقافة يطغى عليها التيئيس والتثبيط والتشاؤم والسلبية والانهزامية، وهي التي تفتح آفاقاً ملؤها الثقة في استشراف مستقبل أفضل، وتعمل على تشجيع المواهب المبدعة في ارتياد آفاق هذا المستقبل الأفضل.

وإذا كانت تلك هي بعض خصائص ثقافة البناء التي ننتهجها في عالمنا المعاصر فإن علينا أن نحافظ على هذه الخصوصية في ظلال عولمة لا تعترف بالحدود بين المجتمعات والثقافات، عولمة أحالت العالم إلى قرية كونية يسيطر فيها الأقوياء على الضعفاء، وتسود فيها العولمة المتوحشة البعيدة عن الإنسانية، إذ شهد العالم في العقد الأخير من القرن العشرين سبعة وخمسين نزاعاً مسلحاً في خمسة وأربعين مكاناً في العالم، ويؤجج أوار هذه النزاعات أرباب العولمة الذين يسوءهم أن يسود العالم السلام في العالم، ويؤرقهم أن يعيش العالم في أمان، وأن يعم الحب أرجاء المعمورة.

إنَّ عالمنا المعاصر سمته اللامعقول واللامنطق، وشريعته شريعة الغاب، وشعاره غطرسة القوة وتبني حق القوة لاقوة الحق، وبات مضمون الإعلام فيه تمجيداً للعنف ونزوعاً إلى العدوان والتدمير، وتحللاً من القيم، وانتهاجاً للعنصرية والاستعلاء، وحضاً على قيم الاستهلاك، وتعزيزاً للتفكير الخرافي وأنَّ الدنيا مسألة حظوظ.

وإنَّ عالماً تلك هي سماته في أمس الحاجة إلى قيادة إنسانية حكيمة توجهها القيم الجديرة بالإنسان لا تلك التي تجعل من الإنسان ذئباً على أخيه الإنسان، وتحيل المجتمع العالمي إلى مجتمعات متناحرة تنتفي في ظلالها القيم الإنسانية، وتتجمد فيها المشاعر الإنسانية.

والواقع لقد استطاع الإنسان في عالمنا المعاصر أن يكتشف الكواكب في كبد السماء وأن يسبر أغوار المحيطات، وأن ينتج ثورة المعلوماتية والاتصالات التي غدا التعامل

فيهـا مع التقانة أكثر من التعامل مع البشر، ولكنه لم يستطع أن يعيش على الأرض إنساناً بكل ما تحمل كلمة إنسـان من قيم ومشاعر وعواطف.

ومن التحديات التي تواجه ثقافتنا وتروم امحـاء ذاتيتنـا الثقافية وهويتنـا التحدي الصهيوني، وهو تحدٍ عالمي يجيء في مقدمة التحديات كافة، ذلك لأنَّ الصـهيونية غزو استعماري استيطاني غير قابل للامتصاص بسـبب جبلته وطبيعتـه العنصريـة، وهو تحد قائم على العـدوان يروم امحاء الهوية العربية والذاتيـة الثقافية للأمـة العربية الإسـلامية، فإسرائيل تحاول جاهدة إلغاء الـتراث التاريخي كلـه في المنطقة، وتحاول إلغاء الوجود السكاني العربي بما يمثله من حياة سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية وثقافيـة ودينية، وذلك بالكبت والتضـييق والاضطهاد والسجن وهدم البيوت والتهجير والإبادة، وتحـاول وصـل التاريخ الحديث للجماعـات الصـهيونية بالتاريـخ القديم لليهود قبل ثلاثة آلاف سنة وإلغاء ما بينهما من التاريخ العربي كله، وتلقين ذلك للأطفال في المدارس العربية وسلب مختلف النشاطات الثقافيـة الخاصـة بالعرب في فلسـطين والجـولان، وادعاؤها ذلـك لليهود حتى في زخرفة الملابس العربية، فلا تعرض منه إلاّ فترات الهزائم وصور الانحطاط وإبراز مآثر اليهود في العصـور الإسلامية، ومنع الكتب العربيـة من التداول الحـر، وحرمان أبناء العرب من التعليم العالي بصورة خاصة.

والهـدف من هذه الممارسـات كافة هو محو الهوية الثقافية أرضـاً وشعباً، ومن هنا كان الصراع معه صراعاً على البقاء والوجود لا صراعاً على الحدود.

وما امتنـاع إسرائيل عـن التوقيع على اتفاقيـة نزع السـلاح النـووي، وامتناعها عن الانسـحاب من الجولان وجنوب لبنان، وامتناعهـا عـن إعطـاء الشـعب العربي الفلسطيني حقوقه المشروعة في إقامة دولته المسـتقلة على أرضه وعاصـمتها القدس، وامتناعهـا عـن تحقيق السـلام الشـامل والعادل، وعدم انصياعها للشرعية الدولية وقـرارات مجلسـ الأمـن والأمم المتحدة، وعدوانهـا على جنـوب لبنـان وعلى غزة وحصـار أهلها، وامتناعها عن إطلاق سراح الأسرى الفلسـطينيين والعرب، إلاّ أمارات جلية وواضحة على طبيعة الكيان الإسرائيلي في عدوانيته ومحاربته للسلام العادل.

إنَّ الإسـتراتيجية التي تنتهجها سـورية في منظومتهـا الثقافيـة هي إسـتراتيجية السلام الشامل والعادل، السلام القادر على الاستمرار، وإنَّ نهجها واضح ورؤيتها شاملة ودورهـا محوري عربيـاً وإقليمياً ودولياً في تطبيـق الشرعية الدوليـة والقانون الدولي

حتى يتحقق السلام والأمن في المنطقة العربية، ذلك لأنَّ السلام الشامل والعادل هو وحده القادر على توفير الفرص للتنمية الشاملة ثقافياً واجتماعياً واقتصادياً وأمنياً، إنَّه السلام الذي لا يقوم على العدوان ولا على الظلم، ولا على القتل، ولا على تهديم المنازل، وإنَّما يقوم على احترام المبادئ، واحترام الإنسان وحقوقه، واحترام الشرعية الدولية.

ومن هنا وقفت سورية ضدّ المشروعات الرامية إلى الخنوع والاستسلام والتنازل عن ذرة تراب واحدة من الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧م، جاعلة القضية الفلسطينية هاجسها الأوَّل وعودة القدس قبل عودة الجولان السوري المحتل، ومركزة على أنَّ التحدي الأوَّل الذي تواجهه الأمة إنَّما هو التحدي الصهيوني، وأنَّ من يقف إلى جانبها في مواجهة هذا التحدي هو الصديق، أمَّا من يرضخ لإملاءات أمريكا ويرضى بعدوان إسرائيل على جنوب لبنان وغزة ولايحرك ساكناً تجاه ذلك فلا يمكن أن يكون صديقاً وطني الانتماء إلى أمته وقضاياها بأي صورة من الصور.

ولما كانت سورية قد وقفت ضدّ أمريكا في احتلالها للعراق عام ٢٠٠٣م، ووقفت إلى جانب المقاومة العراقية في تصديها للاحتلال الأمريكي، كما وقفت إلى جانب المقاومة في جنوب لبنان في تصديها للعدوان الإسرائيلي عام ٢٠٠٦م، وإلى جانب المقاومة في قطاع غزة بفلسطين في تصديها للعدوان الإسرائيلي أيضاً عام ٢٠٠٨م، ومانعت التدخل الأجنبي في ليبيا فإنَّ هذا التصدي كان محط سهام الإمبريالية الأمريكية وإسرائيل والدول الغربية، وإذا الهجمة الشرسة على سورية يشتد أوارها فتجلت في التجييش الإعلامي المضلّل، وفي العقوبات السياسية والاقتصادية، وفي دعم نفر من المعارضة لم يدرك أبعاد المؤامرة ضدّ بلاده وأمته، وتجدر الإشارة إلى أنَّه لا يمكن وضع المعارضة كلها في سلة واحدة، فهناك معارضة داخلية حريصة كل الحرص على الوطن وسيادته، مطالبها محقة وتنبذ العنف في سبيل تحقيقها، وقد استجابت القيادة لها لأنَّ ثقافتها بناءة.

أمَّا ذلك النفر من المعارضة الذي ينفذ بوعي أو من غير وعي إملاءات القوى الخارجية المتآمرة على الأمة، فإنَّه يعتمد ثقافة هدامة تجلت في ممارسات بعيدة كل البعد عن كل ثقافة بناءَة، ومن سمات هذه الثقافة المعتمدة من ذلك النفر المعارض:

- الاستقواء بالأجنبي ودعوته إلى التدخل في الوطن بحجة حماية المدنيين.
- تخريب الممتلكات العامة.
- قتل الأبرياء والتمثيل بالجثث.

- ترويع المواطنين ونصب الكمائن لهم.
- استبعاد الآخر وعدم الاعتراف به.
- عدم الإيمان بحل المشكلات بطريقة حضارية.
- الامتناع عن الحوار مع أبناء الوطن.
- رفض كل الإصلاحات التي تقوم بها الدولة.
- عدم الإيمان بالتنوع وتقديره.
- ممارسة التعصب والتزمت والنأي عن الانفتاح وسعة الأفق وتقبل النقد.
- الإيمان بالتفكير الخرافي والمسلمات وأساليب السحر والشعوذة والترهات.
- الابتعاد عن ركائز الحياة البناءة في القرن الحادي والعشرين والقائمة على:

أ . تعلّم لتعيش وتتعايش.
ب . تعلّم لتعرف.
ج . تعلّم لتكون.
د . تعلّم لتعمل.

على أن ينصبَّ هذا التعلم واكتساب المعرفة على بناء الشخصية المتوازنة والمتكاملة معرفةً ونزوعاً وأداء بحيث تنعكس ثقافتها خصباً ونماء على الفرد والمجتمع، لا تعصباً وتزمتاً وتكفيراً وتخريباً وقتلاً وتدميراً في صرح المجتمع.

إننا في سورية نقدر عالياً المواقف المبدئية لبعض الدول الصديقة المعبرة عن وقوفها إلى جانب القضايا العادلة للأمة، ونصرة الحق العربي في فلسطين والجولان وجنوب لبنان واستعادة العراق لعافيته ووحدة أرضه وشعبه، ووقوفها إلى جانب الشعب السوري في تصديه للمؤامرة الكبيرة التي يتعرض لها منطلقين من قيم الحق والمحبة والتسامح واحترام الآخر، وكراهية العدوان والعنف والاستكبار والاستغلال والاستبداد، ومنطلقين من العمق الحضاري للثقافة السورية، إذ إنّ أوَّل زراعة للقمح عرفها الإنسان لأوَّل مرة في تاريخ البشرية كانت في سورية. وفي سورية تمَّ اكتشاف النحاس في الألف الخامس قبل الميلاد، وفيها اخترعت الأبجدية الأولى في أوغاريت، وقدمتها أمتنا هدية للبشرية، ونقلت معها المعرفة والقيم الإنسانية والتعامل الحضاري، كما أنَّ رُقم أوغاريت الموسيقية هي أوّل تدوين موسيقي في تاريخ البشرية، وعبر سورية انتشرت الرسالات السماوية تروم الخير والمحبة والسلام للناس كافةً وتدعو إلى احترام كرامة الإنسان أنّى كان وفي منأى عن أي تعصب أو تزمت أو طغيان.

لقد أزعج أعداء الأمة ذلك البعد الحضاري لسورية، وتلك المواقف المبدئية التي تقفها سورية في مناصرة الحق ورفض الهيمنة وإباء الضيم والخنوع والمذلة والاستسلام فإذا هم يستخدمون مختلف الأساليب لتركيعها مستعينين بشريحة من

أبناء سورية المتفلتين من ثقافتها البناءَة، وببعض العرب الذين ينفذون مخططات أمريكا وإسرائيل والدول الغربية.

وكانت سورية من قبل وستظل وستبقى رمزاً للتآخي الإنساني، رمزاً للمحبة والوئام، رمزاً للعدل والسلام. ولن تتخلى عن رسالتها الحضارية الإنسانية في هذا العالم سمواً ونبلاً وكمالاً وحقاً وخيراً وجمالاً أفهم الآخرون مواقف سورية المبدئية أم لم يفهموها وستبقى وفية لقيمها الإنسانية ولمبادئ أمتها وثوابتها على مرور الأيام مهما تكُ العقبات وتشتد التهديدات.

إنَّ علينا نحن – العاملين في المجال الثقافي بمختلف ضروبه وأبعاده وأطيافه – أن نجعل الكلمة فعلاً متعدياً، فعلاً يغير ملامح الواقع ويجعله أكثر إنسانية، ذلك لأنَّ الفعل ذا البعد الإنساني، الفعل المقاوم، إنَّما هدفه واحد ألا وهو الوعي باعتباره الجسر بين الكلمة والفعل، أو الممر الذي يسمح بتحويل المنطوق إلى مفعول.

ومعركة الوعي ليست واقعة في حرب نظامية ننتصر فيها ونرتاح، أو نهزم فيها ونستسلم، وإنَّما هي حرب مواقع، فيها تقدم وتعثر، فإذا خسرنا موقعاً اليوم فقد نسترجعه غداً، أو نتخذ من آخر مركز قيادة في حركة من الكرّ والفرّ لا تهدأ ولاتنتهي، ولا يكون طريق المقاومة للتحديات طريقاً فعّالاً إلاّ إذا كان ممتداً امتداد الأفق على حد تعبير إدوارد سعيد.

إنَّ علينا أن نكافح الأفكار الشريرة الإجرامية ودعاتها ومناصريها، وأن نناصر الأفكار الخيّرة في كل زمان ومكان بغية إيجاد عالم يسوده العدل والسلام والمساواة بين الشعوب، عالم ينتفي منه العدوان والاستغلال والظلم وتسلط الأقوياء على الضعفاء، ويعمل فيه على تلافي التواكل والسلبية واللامبالاة والسذاجة والميل إلى الرتابة واللفظية والركاكة والسطحية والانغلاق والجمود والتطرف، وكل أولئك معاول هدم في صرح الثقافة.